الفصل الثالث

عصر ما قبل الأسرات [المتأخر]

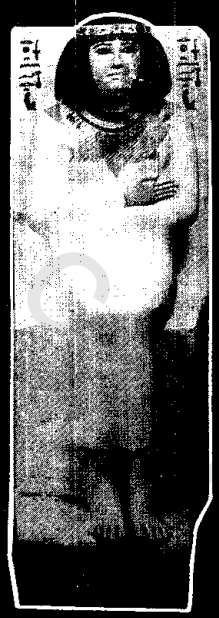

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت الحضارة التى سادت فى عصر ما قبل الأسرات [المبكر] حضارة افريقية الطابع والجوهر. وكان من المفترض أن تظل هذه الحضارة مجدبة وغير مثمرة وباقية فى ذات المستوى الذى وصلت إليه، لولا ما حدث فى عصر حضارة البدارى من احتكاكات أو اتصالات بأشكال أخرى من الحضارات التى كانت سائدة زمنذاك فى المناطق الآسيوية. وقد دلت الشواهد على حدوث تغيرات متميزة وفدت من خارج الحدود.

لقد انتشر استخدام معدن النحاس انتشاراً واسعاً يفترض معه ضرورة حدوث اتصالات أو تقارب ــ سواء عن طريق التجارة أو عن طريق التوسع ــ مع مناطق شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية حيث توجد المناجم الغنية بمعدن النحاس.

وبالرغم من كثرة استخدام النحاس الذى أصبح منذ ذلك العصر مادة مألوفة فى صناعة الأدوات والأسلحة، فقد استمر استخدام حجر الصوان فى صنع الأدوات ذات الأغراض والاستخدامات الخاصة كالأدوات اللازمة لصقل وتنعيم الأوانى والأوعية المصنوعة من الحجر، والأدوات المستخدمة فى حفر العاج، والأدوت الزراعية المستخدمة فى حصاد وجنى محاصيل الحبوب كالمناجل وغيرها.

• مؤثرات حضارية وافدة:

وهناك من الشواهد ما يدل على حدوث مثل هذه المؤثرات الحضارية التى وفدت إلى مصر من مناطق بعيدة خارج حدودها. فقد عثر على ثلاثة أختام

أسطوانية من الأختام التى تميزت بها حضارة «الوركاء» Uruk (١) أو حضارة ما قبل الكتابة التى سادت فى مناطق «ميزوبوتاميا» (٢). وقد عثر على أحد هذه الأختام بمقبرة فى نقادة يرجع تاريخها إلى عصر حضارة الجرزة. وقد شاع استخدام هذا النمط فى صناعة الأختام فى مصر، أى بصنع أختام من الطين بواسطة لف أسطوانة ذات نقش خاص على الطين الطرى وتركه حتى يجف. وظلت هذه الطريقة متبعة فى صناعة الأختام لمدة تزيد على ١٥٠٠ عام حين حلت محلها طريقة الختم بالدق.

الصورة (٢٠)
بالبنّة ألوان معروفة باسم «بالبنة أكسفورد» وتظهر فيها نقوش محفورة تمثل حيوانات اسطورية ذات رقاب طويلة تحيط بالفجوة التى كان يوضع فيها اللون أو مستحضر التجميل. وفى جزئها الأسفل نرى نقشا يمثل مجموعة من كلاب الصيد تطارد مجموعة من الوعول. ونلاحظ أن جميع عيون الحيوانات على شكل تجاويف أو فجوات. وقد عثر على هذه اللوحة فى منطقة هيراكونبوليس.
● محفوظة بمتحف الأشمولين بأكسفورد. تصوير: قسم تصوير الآثار بالمتحف.

الصورة (٢١) ←
رسم حائطى على جدران إحدى المقابر من حضارة جرزة بمنطقة هيراكونبوليس. ويحتمل أن تكون المقبرة خاصة بأحد الرؤساء أو علية القوم. وتمثل الرسوم امتداداً مشابهاً لنقوش «مقبض سكين جبل العرق» [انظر الصورتين ٢٣، ٢٤]. ونرى سفنا ذوات طرز مختلفة. كما نرى رسماً يمثل «مجابهة أو تحدى الأسود».
● معروض بالمتحف المصرى بالقاهرة. والصورة بإذن خاص من مدير عام الآثار.

(٢٠)

(١) يرجع اسم هذه الحضارة إلى بلدة «الوركاء» المعروفة حالياً بالعراق. وكان اسمها القديم «أوروك» أو «أونوج» وذكرتها التوراة باسم «إرك». وهى حضارة تعود إلى فجر التاريخ العراقى القديم [المترجم].

(٢) ميزوبوتاميا اسم اغريقى الأصل وترجمته باللغة العربية تعنى «بلاد ما بين النهرين» [دجلة والفرات] [المترجم].

كذلك فقد زحفت إلى الوحدات الزخرفية المصرية «موتيفات» من أشكال الحيوانات الأسطورية التى كانت سائدة فى ميزوبوتاميا خلال ذلك العصر. وذلك مثل النقش الذى يمثل حيوانين أسطوريين لهما جسماً نمرين ورقبتاهما ثعبانيتا الشكل Serpo — Pards . ومثل النقش الذى يمثل حيواناً خرافياً مجنحاً نصفه نسر ونصفه أسد Winged Griffin . ومثل التكوين الزخرفى المكوّن من ثعابين وحيات متشابكة أو فى شكل ضفائر [الصورتان ٢٠، ٣٢].

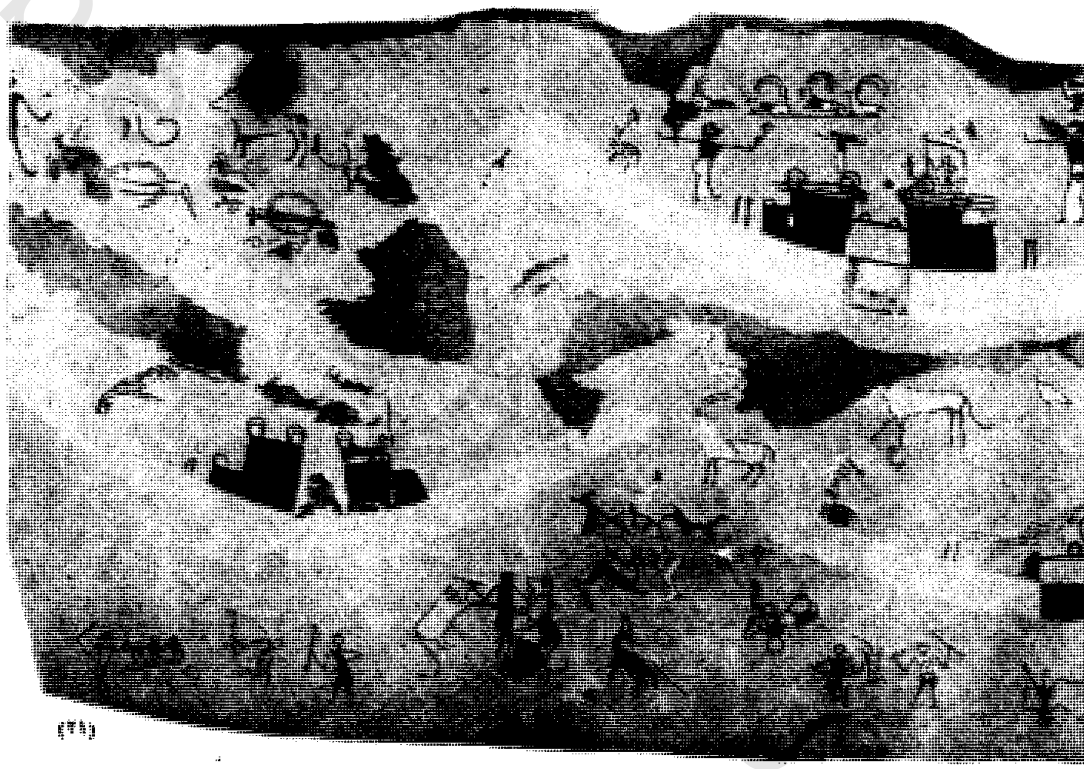

وتعتبر مثل هذه التجديدات الوافدة إلى مصر من خارجها أفكاراً جديدة طارئة على المفهوم الفكرى والفنى الذى كان سائداً بمصر فى ذلك العصر، فالخيال المصرى كان يتسم بالاعتدال والجد، ويعتمد على المنطق فى كل تعبيراته الخلاّقة. وعلى أية حال فقد كانت هذه التجديدات والمستحدثات الفنية قصيرة العمر بالنسبة للتيارات الفنية التى تميز بها الفن المصرى. ومع ذلك فإن استخدام

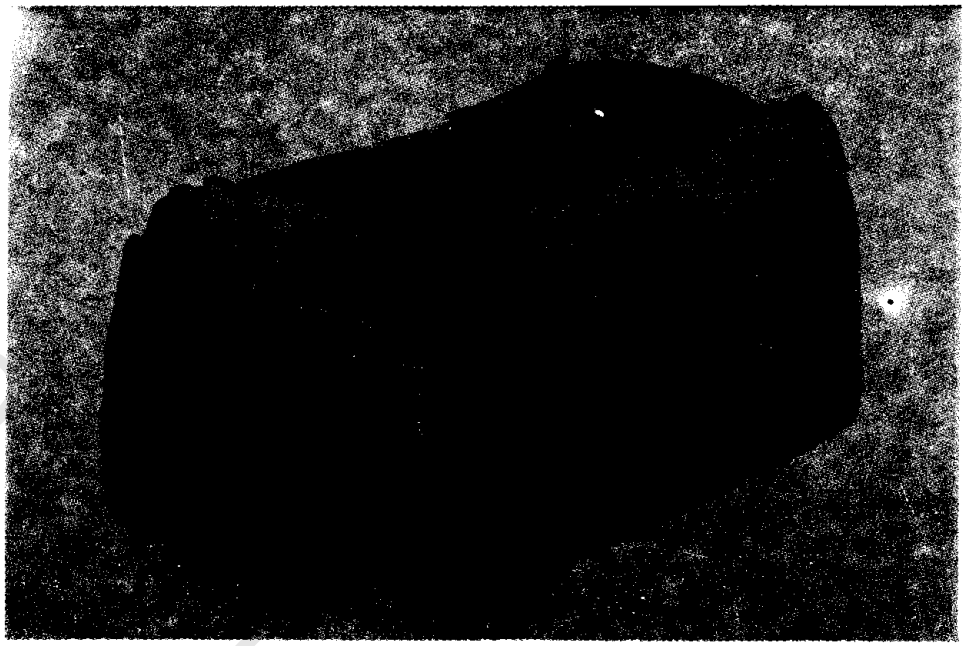

(٢٢)

الصورة (٢٢)

نموذج مصنوع من الفخار عثر عليه فى العمرة، ويمثل بيتاً لأحد الرؤساء من حضارة جرزة. وواضح أن جدرانه كانت مبنية من سيقان نباتية مضفرة ومغطاة بالطين. وهى نفس الطريقة التى ظل يتبعها أهل النوبة حتى عهد قريب فى بناء بيوتهم. أما النوافذ والأبواب فقد كانت تصنع من ألواح من الأخشاب المحليّة. كما أن السقف كان مصنوعاً من عوارض مغطاة بالقش المخلوط بالطين.

• محفوظ بالمتحف البريطانى. وتم التصوير بإذن خاص من امناء المتحف.

هذه المستحدثات فى أعمال فنية مصرية الطابع يدل على مدى قوة تأثيرها على المصريين فى ذلك العصر.

ومن أشهر الأعمال الفنية ذات الروح المستوحاة من خارج مصر، يد السكين المصنوعة من العاج التى عثر عليها فى منطقة جبل العرق والمحفوظة حالياً بمتحف اللوفر [الصورتان ٢٣، ٢٤]. ونرى على أحد وجهيها نحتاً يمثل بطلاً نمطياً ذا طابع ميزوبوتامى واضح، وهو يقهر أو يقوم بمصارعة أسدين. وهذه صورة تقليدية معروفة فى فن ميزوبوتاميا. وقد عثر أيضاً فى إحدى مقابر هيراكونبوليس (٣) التى يرجع تاريخها إلى عصر حضارة الجرزة المتأخرة، على صورة مماثلة لهذا البطل التقليدى منقوشة على أحد جدران تلك المقبرة التى تعتبر بدورها من أقدم المقابر المبنية بقوالب الطوب الطينى [الصورة ٢١].

(٣) كان أسمها المصرى القديم «نِخِنْ» وهى «الكوم الأحمر» حاليا. وتقع على بعد نحو ١٥ كيلو مترا شمال إدفو [المترجم].

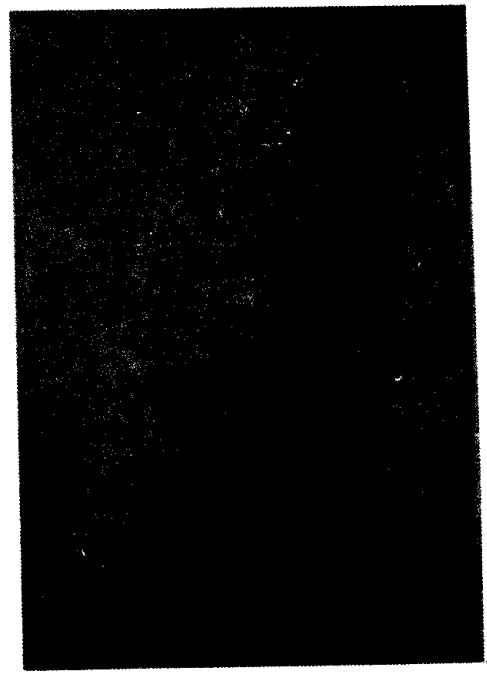

(٢٣)

الصورتان (٢٣) ، (٢٤)

من أهم الآثار التى يرجع تاريخها إلى عصر حضارة جرزة ، تلك السكين الشهيرة التى عثر عليها بمنطقة « جبل العرق » بصعيد مصر . وتصل السكين مصنوع من الصوان طبقا للنموذج المعتاد المعروف باسم « الرقائق المتموجة » . أما المقبض المصنوع من العاج المحفور، فهو على درجة كبيرة من الأهمية . وعلى الوجه الأول من المقبض [الصورة ٢٣] نرى فى الطرف الأعلى منظراً يمثل الصراع بين رجل وأسدين ، وهو منظر يرمز إلى بطل « ميزوبوتاميا » المعروف باسم « جلجاميش » الذى كان يطلق عليه لقب « ملك أو سيد الوحوش » . وهذا المنظر غير المعتاد يماثل المنظر المرسوم على جدران إحدى المقابر التى يرجع تاريخها إلى عصر حضارة جرزة والتى عثر عليها بمنطقة هيراكونبوليس [انظر الصورة ٢١] . ونرى تحت منظر البطل كلبين من كلاب الصيد وتحتها مجموعة من الوعول ، ونرى أسداً ينقض على وعل منها . أما الوجه الآخر من المقبض [الصورة ٢٤] فقد حفرت عليه مناظر تمثل احتدام معركة مائية . كما نرى فى الوسط مجموعة من المراكب من طراز « البَلَم » Belem المعروفة فى نهر دجلة . ونرى فى الصف السفلى مجموعة من المراكب المصرية القديمة من الطراز الذى استخدم فى عصر حضارة جرزة .

● محفوظ بمتحف اللوفر. تصوير: موريس شوزيفيل .

أما الوجه الآخر من يد السكين تلك المصنوعة من العاج، فقد حفر عليه منظر يمثل سفنا ذات مقدمات ومؤخرات مرفوعة رأسياً تمثل نفس طراز السفن المعروفة باسم «البَلَمْ» والتى كانت مستخدمة فى نهر دجلة Tigris .

وفى عصر حضارة الجرزة المتأخرة، حدثت ظاهرة مستحدثة ولكنها أقل تأثراً بالطرق التقليدية الأجنبية الوافدة إلى مصر من خارجها. وهى البدء فى استخدام قوالب الطين فى إقامة الأبنية والمنشآت المعمارية. فقد هجر البنّاؤون الأوائل فى مصر بالتدريج طريقة بناء البيوت من المواد النباتية سريعة العطب كنبات السَّمَار ذى السيقان الاسطوانية، وسيقان نبات البردى، وجريد النخيل، والحصر المصنوعة من الأكياب Rush [الصورة ٢٢]. وبدأوا يستخدمون قوالب الطين المجففة فى الشمس، والتى كانوا يصنعونها بصبها داخل قوالب خشبية مستطيلة الشكل (٤). وهذه الطريقة المستحدثة فى فن البناء ذات الأعمدة الناتئة أو البارزة من الجدران، وكلها مبنية بقوالب الطين، تحمل سمات الطريقة التقليدية للبناء التى كانت مستخدمة فى الزمن المعاصر فى ميزوبوتاميا، حيث كانت طريقة البناء بقوالب الطين منتشرة هناك منذ أزمان أكثر قدماً.

• بداية ظهور الكتابة:

ولعل الظاهرة الأكثر أهمية فى ذلك العصر، هى الظهور الفجائى لطريقة تسجيل لغة الكلام كتابة، وهى طريقة أكثر تقدماً من مجرد التعبير عن الكلمات بالصور المرسومة Picto Graphic. فقد ظهرت الكتابة الهيروجليفية أولاً منقوشة على ألواح الإردواز التى يرجع تاريخها إلى عصر حضارة الجرزة المتأخرة.

---

(٤) أجرى بعض علماء الآثار مقارنة بين حجم قوالب الطين اللبن التى كانت مستخدمة فى بلاد ما بين النهرين أثناء ازدهار حضارة «الوركاء» أو حضارة «جمدة نصر» وحجم قوالب الطين اللبن التى استخدمت فى مصر فى زمن معاصر لهذه الحضارة، فوجدوا أن حجم القوالب العراقية كان ٢٠×٨,٥×٨ سم أو ٢٣×٩×٦,٥ سم. أما حجم القوالب المصرية فكان ٢٤×١٠×٥ سم أو ٢٣×١٢×٧ سم [المترجم].

وقد لوحظ أن هذه الكتابة قد استخدمت منذ البداية الرموز والعلامات « الإديوجرامية » (٥) Ideograms والرموز والعلامات « الفونوجرامية » (٦) Phonograms . ومن المعروف أن الكتابة باستخدام مثل هذه الرموز والعلامات قد نشأت أولاً فى ميزوبوتاميا متطورة عن رموز وعلامات سابقة كانت تدون بطريقة أكثر بدائية.

وقد تزامن ظهور الكتابة فى مصر مع الفترة التى قويت فيها لغة الكلام ذات العناصر والمكوّنات « السامية » Semitic على حساب اللغة ذات العناصر والمكوّنات والمركّبات « الحامية » Hamitic و« البربرية » Berber . ومن المحتمل أن هاتين الظاهرتين [ظهور الكتابة وتغلب اللغة ذات العناصر السامية] تتواقف كل منهما على الأخرى. وقد تغلبت اللغة ذات الخصائص « السامية » نظراً لأن طريقة الكتابة أو التدوين قد ابتكرت فى الأصل لتسجيل الطريقة السامية فى النطق والكلام.

وفى تلك الفترة أيضاً حدثت هجرات بشرية من شعوب الشمال نحو مناطق انتشار الحضارة الجنوبية. الأمر الذى أدى بالتالى إلى حدوث تطور فى السمات البدنية أو الجسمانية للشعوب التى كانت تعيش فى الجنوب، حيث حدث تطور فى شكل الرأس، وذلك بتمازج شكل الرأس المستطيل الذى يميز شعوب البحر المتوسط بشكل الرأس العريض الذى يميز سكان الجبال الذين يحتمل وفودهم من مناطق سوريا والأناضول.

وليس هناك مايدل على أن هذه المستحدثات الحضارية قد جاءت نتيجة لعمليات غزو، أو حدثت قسراً، فحضارة الجرزة التى انتشرت فى مناطق الجنوب عبارة عن تطور لحضارة العمرة التى تغلّب عليها الخصائص والسمات الافريقية. أما التأثيرات الحضارية الأجنبية الوافدة من الخارج، فلم تكن بالحجم المبالغ فيه،

---

(٥) الصور أو الرموز المستخدمة فى الكتابة لتمثل أو لتدل على معنى شىء أو فكرة ــ لا كلمة ــ خاصة بهذا الشىء أو تلك الفكرة وهى ما تسمى لغويا باسم Ideo Grams [المترجم].

(٦) الرمز المستخدم لتصوير كلمة أو مقطع من كلمة، أو لتصوير حروف ذات دلالة صوتية معينة، وهى ما تسمى لغوياً باسم Phono Grams وتستخدم للدلالة على الأصوات [المترجم].

ولا تعدو أن تكون مجرد أفكار أو طرق تسربت إلى حضارة كانت ذات خصائص مميزة وسمات واضحة.

وعلى سبيل المثال فإن يد السكين المصنوعة من العاج والتى عثر عليها فى جبل العرق، تدل نقوشها على مظهر أجنبى واضح تماماً، ومع ذلك فإن هذه النقوش تتضمن أيضاً أنماطاً واضحة من مناظر المراكب والحيوانات ذات الطابع المصرى التقليدى الخالص. [الصورتان ٢٣، ٢٤]. كما أن الأختام الأسطوانية التى استخدمت فى مصر، صنعت من الخشب وصنعت أيضاً من الحجر، وقد نقشت عليها «كتابة» ولم تكن مجرد نقش لوحدات أو تصميمات زخرفية.

كذلك فإن الرموز والعلامات الهيروجليفية كانت رسوماً أو صوراً لأشياء رؤيت بعيون مصرية، ورسمت أو صوّرت بطريقة المصريين التقليدية فى ملاحظة وتسجيل المشاهد بطريقة غاية فى التلخيص والاقتضاب، وهى الطريقة التى تفوّق بها المصريون على باقى الشعوب المحيطة بهم.

وقصارى القول أن المستحدثات التى تسربت إلى الحضارة المصرية فى ذلك العصر كانت مجرد مبادىء وأفكار، ولم تكن أسلوباً عاماً كاملاً. وهذه المهارات الحديثة التى وفدت إلى مصر فى ذلك العصر، وجدت فى مصر أرضاً خصبة للانتشار والتطور، إذ سرعان ما تم امتصاصها وافرازها بعد تمصيرها أو تكييفها طبقاً للظروف المصرية، على أيدى شعب متوثب ومتحمس ومستعد للتطور والتغيير.

وتدل جميع الشواهد على أن هذه التأثيرات الأجنبية قد زحفت من الشمال إلى الجنوب. ولكن معلوماتنا عن الظروف والأحوال التى كانت سائدة فى دلتا النيل قاصرة تماماً ونادرة بطريقة مؤسفة. ومن المحتمل أن تلك المستحدثات كانت نتيجة للعلاقات التجارية التى سادت فى منطقة شرق البحر المتوسط نتيجة للتطور الذى أدى إلى ظهور السفن الصالحة للملاحة فى البحار.

● **صناعة بناء السفن:**

ومما لاشك فيه أن ظهور هذه السفن قد حدث فى منطقة يكثر بها وجود الأخشاب المناسبة لبناء هذا الطراز من السفن. ومن المعروف أن مصر ليست غنية

بالأخشاب، ولذلك فأغلب الظن أن بيبلوس Byblos أو جبيل فى لبنان كانت المكان الذى بنيت فيه السفن البحرية التى تجولت فى المياه الساحلية لمناطق شرق البحر المتوسط Levant (٧).

وأياً كان المكان الذى بنيت فيه السفن البحرية لأول مرة، فإن المصريين سرعان ما برعوا فى بناء هذه السفن وطبعوها بطابع مصرى خالص واستخدموها لتحقيق أغراضهم وأهدافهم، تماماً مثلما استوعبوا فى تاريخ لاحق فكرة صناعة العربات أو المركبات التى تجرها الخيول، وهى الأخرى فكرة وفدت إلى مصر من خارجها.

ومن المؤكد أن هذا الانفتاح الذى حدث فى مناطق شرق البحر المتوسط فى ذلك العصر، قد أدى دوراً مؤثراً فى زيادة الاتصالات بين مختلف الشعوب التى كانت تعيش فى تلك المناطق، كما أدى إلى الاتصال والاحتكاك بين الحضارتين المزدهرتين فى كل من مصر وجزيرة كريت.

• حضارة الجرزة:

تحددت مميزات وخصائص حضارة الجرزة التى تنتمى إلى حضارة الوجه البحرى، بدراسة الآثار والمخلّفات التى عثر عليها بمنطقة الجرزة وببعض مناطق الفيوم. كما وجدت آثار ومخلفات أخرى لها ذات الخصائص والمميزات فى بعض مناطق الوجه القبلى، خصوصاً فى مناطق الجبانات الواسعة فى نقادة والبلاّص بالقرب من قفط. وتعتبر هذه الآثار الأخيرة تطوراً لآثار ومخلفات حضارة العمرة التى كانت سائدة من قبل فى تلك المناطق.

---

(٧) لنا تحفظ على رأى المؤلف فى هذا الشأن، فليس معنى وجود الأخشاب الصالحة لبناء السفن فى لبنان أن لبنان قد سبقت مصر فى هذا المضمار. وثبت بأدلة قاطعة أن المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ قد بنوا سفنا ضخمة استخدموا فى بنائها أخشابهم المحلية بالإضافة إلى الأخشاب التى كانوا يستجلبونها من لبنان. وفى كتابنا «مراكب خوفو» أوردنا مدخلاً كاملاً عن «تاريخ البحرية وصناعة بناء السفن فى مصر القديمة» ناقشنا فيه هذا الموضوع بكثير من التفصيل [المترجم].

ويمكن القول بأن مميزات وخصائص الحضارة المصرية فى عصر ماقبل الأسرات [المبكر] قد ظهرت فى ذلك العصر الذى سادت فيه حضارة الجرزة التى أخذت تتطور بدورها حتى دخلت مصر فى عصورها التاريخية.

وكانت الصفات الجنسية والعنصرية للشعب المصرى الذى كان يعيش فى عصر حضارة الجرزة مماثلة بصفة عامة للصفات الجنسية والعنصرية لأسلافهم من أجناس البحر المتوسط، مع تميز بسيط يتمثل فى أن جماجمهم كانت أعرض قليلاً ووجوههم كانت أطول قليلاً.

● زخرفة الأوانى الحجرية والفخارية:

وتتميز الأوانى الفخارية التى يرجع تاريخها إلى عصر تلك الحضارة بأن لها أيادٍ تمسك منها، مزخرفة بخطوط متموجة، وهى مماثلة تماماً للأوانى الفخارية التى عثر عليها فى فلسطين، والتى يرجع تاريخها إلى نفس العصر. كما أن هذه الأوانى الفخارية كانت ملونة بألوان خزفية خفيفة يغلب عليها اللون الأحمر القرنفلى أو اللون الأصفر البرتقالى، ومزخرفة بخطوط حمراء. أما الوحدات الزخرفية التى كانت تنقش عادة على تلك الأوانى فكانت تتضمن تلالاً مثلثة الشكل، وطائر الفلامنجو أو البشروش [وهو طائر مائى طويل العنق والرجلين ويسمى أيضاً النحام]، والوعول، ونبات الموز الاثيوبى المعروف علمياً باسم Musa ensete، بالإضافة إلى أشكال آدمية.

وكانت بعض تلك الأوانى مزخرفة بتصميمات وأشكال فسرها «بِتْرى» بأنها تمثل أضرحة أو عروشاً أو شعارات أو رموزاً خاصة ببعض الآلهة. إلا أن علماء كثيرين عارضوا هذا التفسير [الصور ١٣، ٢٥، ٢٧].

وقد عثر فى منطقة الجبلين(٨) على بقايا قطعة من القماش رسمت عليها مراكب توضح لنا نموذجاً لما كانت عليه طريقة تصميم وبناء السفن فى تلك الفترة

---

(٨) تقع على الشاطىء الغربى للنيل جنوب أرمنت. وكانت مركزاً لعبادة الإلهة «حتحور» ربة الجبلين. وكانت لها أهمية عسكرية فى بعض العصور [المترجم].

كذلك فإن العاصمة الادارية التى أسسها الملك مينا فى منطقة «منف» (٤) وهى المنطقة التى تعتبر نقطة التوازن بين مصر العليا ومصر السفلى قد أدت دورها المؤثر الفعال فى ازدهار الفنون والعلوم خلال العصر العتيق وعصر الدولة القديمة بأكمله، وذلك تحت رعاية الإله «بتاح» (٥) الذى كان يعتبر الإله الخالق وراعى الصناع.

ومن المؤكد أن فن «الكتابة» فى هذا العصر قد حقق المزيد من التقدم وتخطى مرحلة الغموض التى ظهرت فى البداية مكتوبة على ألواح الإردواز السابقة.

ومنذ بداية عصر الأسرة الأولى على أقل تقدير عرفت مصر صناعة صحائف ورق البردى التى كانت تصنع من لب نبات البردى الذى كان ينمو بكثافة على شطآن النيل وأحراشه. وقد أدى هذا الاختراع المصرى دوراً هائلاً فى سهولة تسجيل النصوص المكتوبة وعمل العديد من نسخ تلك النصوص حسب الحاجة.

كذلك فقد تطورت فى هذا العصر طريقة الكتابة بالقلم والحبر، وبدأت فى الظهور طريقة جديدة للكتابة بحروف سريعة ومتصلة. كما أصبح فن الكتابة من القدرات المتميزة والمهن الرفيعة التى يشغلها علية القوم وكبار الموظفين الذين كانوا يفخرون بعمل تماثيل تخلدهم وهم فى هيئة «الكاتب الجالس».

---

(٤) اسمها المصرى القديم «مِنْ نِفِرْ» أى [الميناء الجميلة]. وسماها الاغريق «منفيس» [البدرشين وميت رهينة حالياً]. ولما تولى الملك «زِرْ» أو «دِجِرْ» [من ملوك الأسرة الأولى] حصن المدينة وأقام فيها قلعة ضخمة سماها «الجدران البيضاء» وتدل الكثير من الشواهد التاريخية الأثرية على أن عاصمة مصر فى عصر الأسرتين الأولى والثانية ظلت فى «طينة» بالصعيد ولم تصبح مدينة «منف» عاصمة للبلاد إلا فى عصر الأسرة الثالثة [المترجم].

(٥) يعتبر الإلة بتاح من أهم آلهة مصر القديمة. وهو إله منف وإله الخلق وحامى الفنانين والحرفيين. وقد مثل على هيئة انسان يقف على قاعدة داخل مقصورة. وكان يمثل الأب فى «الثالوث المنفى» وزوجته هى الإلهة «سِخْمِتْ» وابنه هو الإله «نِفِرْ أَتُومْ» وربما كان أصل هذا الإله رجلاً عبقريا حقيقيا طواه النسيان منذ ازمان سحيقة، وذلك لانه على خلاف مجموعة الآلهة المصرية لم يأخذ صورة حيوان، وظل يمثل فى شكل رجل فى لفائف مومياء ولا يغطى رأسه سوى قلنسوة أو طاقية ضيقة. وقد ظلت عقيدة الإله بتاح قوية ومزدهرة بين الطبقات المثقفة طوال التاريخ المصرى كله. وكانت عقيدة تتميز بالروحانيات الرفيعة اكثر مما تتميز به العقائد المصرية الأخرى التى يغلب عليها الطابع المادى [المترجم].

(٢٧)

الصورة (٢٧)

أشكال بشرية وحيوانية ونباتية استخدمت كموتيفات زخرفية للتزيين فى كل من حضارة العمرة وحضارة جرزة. وتتضمّن هذه الموتيفات تلالاً على شكل مثلثات ووعولاً وأشجاراً وسفناً وصيّاداً يقود مجموعة من كلاب الصيد وجنوداً محاربين. وقد استخدمت السفن بكثرة كوحدات زخرفية فى هاتين الحضارتين. وكان من المعتاد رسم تلك السفن بكبائن تظهر فى منتصفها، أو بأشرعة مربعة أو مستطيلة الشكل لتساعد فى ابحارها ضد التيار حين كانت تتجه جنوباً.

• هذه الرسوم مأخوذة عن فلندرز بترى وستيفنسون سميث.

من عصر ما قبل التاريخ، حيث رسمت المراكب ومجدفوها ورجال الدفة، كما رسمت أيضاً أشكال تمثل كبائن تعلو أسطح تلك المراكب [الصورة ٢٨].

وقد كثر ظهور الأوانى التى يرجع تاريخها إلى عصر حضارة الجرزة، وهى أوان تماثل ذلك النوع من الأوانى والزهريات الحجرية. وقد يرجع ذلك إلى ظهور «المثقاب المكرنك» Cranked brace الذى كان يقوم بمهمة مماثلة للعجلة الدوارة Fly Wheel والذى جعل من عملية ثقب وتجويف وتفريغ الحجر عملية أقل صعوبة مما كانت عليه من قبل. وقد أصبحت هذه الأداة المستخدمة فى ثقب وتجويف الأحجار علامة أو رمزاً هيروجليفياً يسمى «حِمْ» [الصورة ٢٩].

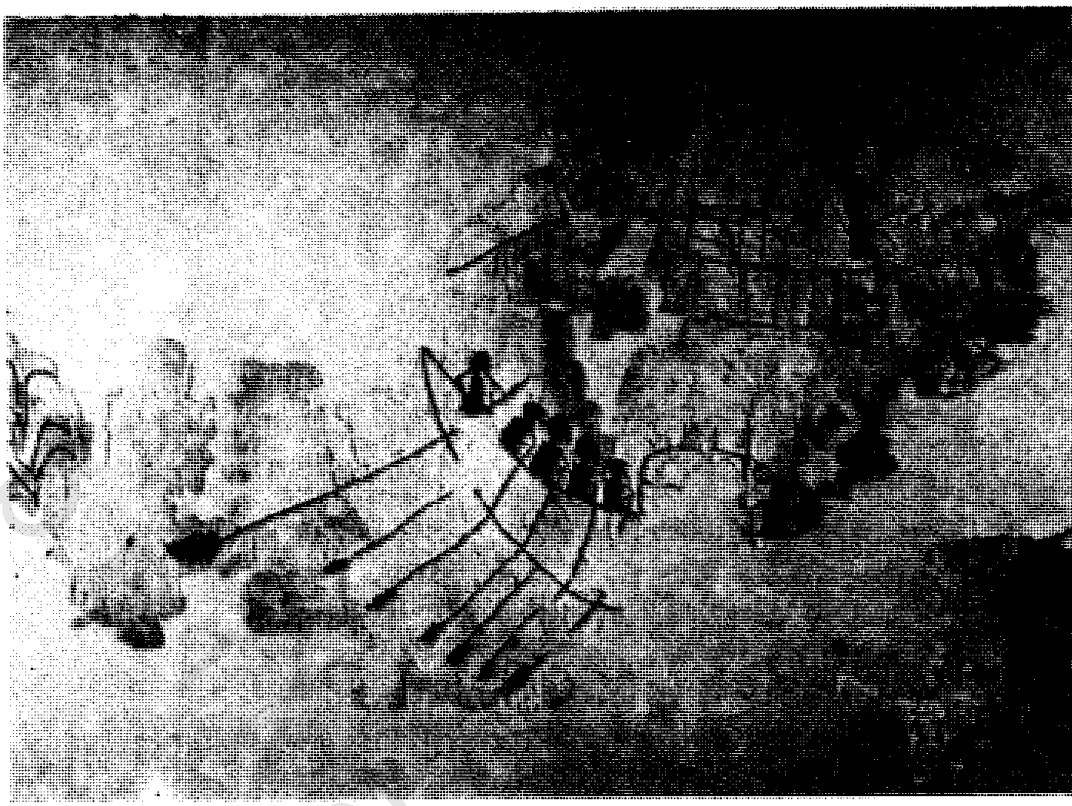

(٢٨)

الصورة (٢٨)

بقايا قطعة من قماش الكتان، عثر عليها فى إحدى مقابر عصر ماقبل الأسرات فى منطقة الجبلين. وكان الكتان منسوجاً من خيوط رفيعة جداً. وقد استغرق ترميم هذه القطعة وتجميع اجزائها نحو أربع سنوات. وفى كل سفينة من السفينتين المنقوشتين على القماش، نرى كبينتين كما نرى بحّاراً فى المؤخرة يقوم بتوجيه مجداف الدفة. وعلى عكس معظم الرسوم التى ترجع إلى عصور ماقبل التاريخ سواء فى مصر أو ميزوبوتاميا أو مناطق البحر المتوسط، فإن الرجال الظاهرين فى هذا الرسم لهم لحى وبدون أنوف بارزة.

• محفوظة بمتحف تورين. تصوير: چستينو رامبازى.

• التزجيج وصناعة الأدوات الصوّانية:

وفى عصر حضارة الجرزة أيضاً وصلت عملية صقل وتشذيب حجر الصوان إلى مستوى رفيع منقطع النظير فى الدقة. ويتضح ذلك فيما عثر عليه من نصال السكاكين ذات الحواف الرقيقة الحادة، المحفورة بشكل متموج منتظم يجعلها تبدو كما لو كانت كرمال البحر المتموّجه عقب انحسار الموج من على الشاطىء. وقد سميت طريقة صنع نصال السكاكين على هذا الشكل باسم «الرقائق المتموّجة» Ripple-Flanking . ومن المحتمل أن تكون قد استعملت فيها أداة أو مثقاب مصنوع من الخشب.

(٢٩)

الصورة (٢٩)
العلامة الهيروجليفية « حِمْ » وهى تشبة أداة الثقب التى يستعملها الحجارون فى ثقب الأحجار.

فى عصر حضارة البدارى السابق، استخدمت مادة قلوية فى صناعة طلاء زجاجى كانت تزجج به بعض المصنوعات الصغيرة كحبات الخرز. وفى عصر حضارة الجرزة اللاحق، أصبحت طريقة التزجيج هذه فريدة فى نوعها، واحتلت مكانة مرموقة فى الصناعات المصرية، وأصبحت تسمى «الخزف أو الفيانس المصرى» Egyptian Faience، وقد استمرت هذه الصناعة طوال عصور التاريخ المصرى القديم وحتى العصور الإسلامية. وأغلب الظن أن المادة التى كانت تستخدم فى صناعة هذا الخزف قد ظهرت وتطورت صناعتها على أيدى الأهالى الذين كانوا يعيشون فى مناطق الحدود الغربية لدلتا النيل.

وفى الفترة المتأخرة من حضارة الجرزة [من حوالى ٣٤٠٠ ق م إلى حوالى ٣٢٠٠ ق م] ظهرت علامات تؤكد حدوث نوع من النشاط السياسى تمثل فى صراع من أجل الحكم والهيمنة بين حكام الوجه القبلى وحكام الوجه البحرى. ومن المعروف أن الوجه القبلى فى مصر يتألف من الوادى الضيق الذى يمتد شمالاً بدءاً من صخور الجندل الأول فى الجنوب، أما الوجه البحرى فيتألف من دلتا النيل فى شمال البلاد. ومنذ ذلك العصر أصبحت هذه الفوارق الجغرافية بين الوجهين موضوعاً على جانب كبير جداً من الأهمية بالنسبة لتاريخ البلاد. (٩)

(٩) كانت عاصمة مملكة الجنوب [الوجه القبلى] مدينة «نِخِنْ» التى عرفت فيما بعد باسم «هيراكونبوليس» [أى مدينة الصقر]. وهى تعرف الآن باسم [الكوم الأحمر]. وتقع بغرب النيل قبالة مدينة «نِخِبْ» القديمة [الكاب حاليا] التى تقع على الشاطىء الشرقى للنيل. ويرى بعض المؤرخين [ومنهم الدكتور محمد جمال الدين مختار] أن مملكة الوجه القبلى كانت لها عاصمتان هما: «نخب» كعاصمة سياسية و «نخن» كعاصمة دينية. وكذلك كانت لمملكة الوجه البحرى عاصمتان متجاورتان هما «دِبْ» و «پى» وقد اسماهما الاغريق معا باسم «بوتو» [تل الفراعين حاليا] [المترجم].

■ البيئة الطبيعية

تنحصر أراضى الوجه القبلى فى ذلك الشريط الضيق الممتد على ضفتى النيل، والذى تحيط به الصحارى والتلال الصخرية، مما يشكل فى نهاية الأمر بيئة شحيحة إذا قورنت بآفاق الأراضى الواسعة فى مناطق الدلتا ومنخفض الفيوم.

● طبيعة الوجه القبلى:

وكان المصرى الذى يعيش فى الوجه القبلى يعرف تماماً أن كدحه وكفاحه الدائم هو الذى يمنع الرمال الحمراء والصفراء التى تحيط به، من أن تبتلع الأرض الخصبة السوداء التى اكتسبها (١٠). وأكدت التجارب له أن هذا الكفاح لكى ينجح ويحقق نتيجته المرجوة فلابد أن يكون جماعياً، ولذلك فقد كان من المحتم عليه أن يضم جهوده إلى جهود الآخرين، وأن يتعاون مع جيرانه فى القيام بهذا العمل الجماعى. وقد قام نهر النيل بدوره فى تسهيل هذا التضافر الاجتماعى بين السكان على طول الضفتين وذلك باعتباره ممراً مائياً حقق لهم سبل الاتصال السريع بين كل اجزاء المنطقة.

● طبيعة الوجه البحرى:

أما الوجه البحرى فكان يتكون من مناطق عريضة واسعة من الأراضى التى تتضمن الكثير من الأحراش والخلجان والروافد المائية والمستنقعات والمناطق العشبية، وتحف بجانبيه الشرقى والغربى مراعى ومنتجعات واسعة ترعى فيها قطعان عديدة من الأغنام والماعز والمواشى الأخرى.

---

(١٠) كان اسم مصر القديم هو «كِمِى» ومعناه «الأرض السوداء» أى الوادى الخصب المزروع، وذلك للتفريق بينها وبين «الأرض الحمراء» وهى الأرض الجبلية أو الصحراوية التى تحيط بالوادى والتى كانت تسمى «تا ــ دِشِرْ». ولاحظ قرب نطق كلمة «دِشِرْ» من كلمة Desert أى الصحراء. وقد ظل اسم «كمى» مستخدماً للدلالة عن مصر إلى أن غيره الأغريق إلى «إجبتيوس». ولم يفسر هذا الاسم تفسيراً قاطعاً حتى الآن، ولعل أفضل تفسير له هو انه مأخوذ عن «حا ــ كا ــ بتاح» أى مكان روح الإله بتاح [المترجم].

وكان مناخ الدلتا الذى ينتمى إلى مناخ البحر المتوسط، أكثر رطوبة وأقل قسوة من مناخ المناطق الداخلية بمصر العليا. ولهذا فقد كانت الدلتا منطقة خصبة مزروعة بالكروم وحدائق الفواكه، وتتوافر فيها الأسماك والدواجن والطيور. وبقربها تتوافر الملاّحات التى توفر الملح اللازم لحفظ اللحوم والطيور والأسماك.

وعند بداية الدلتا من ناحية الجنوب، كان مجرى نهر النيل فى ذلك العصر يتفرع إلى إثنى عشر فرعاً، تتفرع منها بالتالى مجموعة لا حصر لها من الروافد المائية الصغيرة. وكانت الدلتا مقسمة إلى عدد من الأقاليم أو المقاطعات، تتجمع كل منها حول وحدة رئيسية تمثل قرية أو مدينة.

وبينما كان سكان الوجه القبلى ينظرون شمالاً إلى جيرانهم من سكان الوجه البحرى، كان هؤلاء الأخيرين ينظرون شمالاً نحو البحر المتوسط. وكانت الموانى البحرية التى أقيمت على السواحل الشمالية للدلتا، على علاقة وطيدة بمناطق شرق البحر المتوسط ومناطق بحر إيجَهْ. وكان سكان الدلتا أيضاً على صلة بالليبيين (١١) فى الغرب وبالساميين فى الشرق.

• أوجه التماثل والاختلاف فى حضارة الوجهين:

وفى ذلك العصر كان الوجه البحرى أكثر تقدماً من الناحية الحضارية عن الوجه القبلى. وحتى فى العصور التاريخية التى تلت هذا العصر، احتفظ الوجه البحرى بقيادته كمركز للفنون والحرف الصناعية. ومن المحتمل أنه كان يستقطب المهرة من الصناع والحرفيين سواء القادمين من المناطق القريبة أو من المناطق البعيدة.

ولسوء الحظ فإن معرفتنا ما زالت قاصرة عن مظاهر حضارة الوجه البحرى فى ذلك العصر، لأن ماضى الدلتا ــ فى معظمه ــ قد ضاع وتلاشى تحت الركامات الهائلة من طمى النيل. والغالبية العظمى من المعلومات التى توصلنا إليها كانت عن طريق الحدس والتخمين.

---

(١١) منذ عصر الدولة القديمة ذكرت النصوص بلاد «تِمْحُو» التى كان يقصد بها المنطقة التى تقع غرب الدلتا. وكان أهلها يتجولون على حدود مصر فى شمالها الغربى وجنوباً حتى مرتفعات وادى السبوع بالنوبة [المترجم].

ومع ذلك فإن من الخطأ المبالغة فى تحديد الفوارق بين سكان الوجهين القبلى والبحرى، فكلهم يتكلمون نفس اللغة، ويعتنقون عقائد متقاربة، ويعيشون فى ظل حضارة مادية وروحية مماثلة. وعلى سبيل المثال فإن فكرة حلول القوة الإلهية فى بعض الرجال المعينين أو فى بعض الحيوانات، كانت فكرة مقبولة فى كل من الوجهين، بالرغم من وجود بعض الفوارق الطفيفة فى الأشكال الإلهية فى مختلف المناطق، أو اختلاف هذه الأشكال من مكان إلى آخر.

ولهذا فلم يكن غريباً أن هذه الوحدة بين أفكار المصريين ومشاعرهم، كانت شيئاً طبيعياً بعدما تحققت الوحدة بين الوجهين فى بداية عصر الأسرات. وأن هذه الوحدة بدورها قد أدت إلى ذلك الازدهار الكبير فى حضارة مصر بأكملها بمجرد تحقيق الوحدة بين الوجهين وإنهاء مرحلة الانفصال بينهما.

ومع ذلك فقد كان هناك نوع من التميز يفرّق بين الوجهين، الأمر الذى جعل المصريين القدماء يشيرون إلى مصر بأنها «الأرضين» Two Lands ولم يكن ذلك غريباً على المصريين القدماء الذين كانوا يعتقدون بوضوح فى «ثنائية» العالم. وبينما كان الوجه البحرى فى الشمال يقوم بمهمة القيادة الثقافية والحضارية، كان الوجه القبلى فى الجنوب يقوم بمهمة القيادة الادارية والسياسية.

وفى عصر حضارة الجرزة، كانت الوحدة السياسية أو الحكومية سواء فى الوجه القبلى أو الوجه البحرى تتكون من اقليم أو مقاطعة أو مركز رئيسى فى قرية أو مدينة تتحلق حوله مجموعة من الجماعات البشرية. وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تحت رعاية واحد من الآلهة، وتحت قيادة موحدة تتمثل فى رئيس أو شيخ لتلك الجماعة. وكانت هذه الأقاليم أو المقاطعات هى الأجزاء أو الأشلاء التى تستقل أو تنفصل عن بعضها فى الفترات التى تتمزق فيها الدولة، وتحدث فيها الفوضى أو الاضطرابات السياسية والاجتماعية (١٢).

(١٢) أطلق المصريون القدماء اسم «سبات» على أى مقاطعة أو أقليم، وهذه الكلمة مشتقة من الفعل المصرى القديم «سب» ومعناه «يقسم». ثم أطلق الاغريق اسم Nom على أية مقاطعة، وهذا الاسم الاغريقى يطابق تماماً معنى الاسم المصرى، حيث كانت كلمة «سبات» تعنى «قسم» وكانت تكتب فى اللغة المصرية القديمة على شكل مستطيل مقسم بخطوط متقاطعة متعامدة [المترجم].

واخيرا ففى عصر حضارة الجرزة [المتأخر] ظهر النموذج السياسى الذى تكرر عدة مرات بعد ذلك فى التاريخ المصرى القديم، وهو تطلع وطموح أمراء أو حكام الجنوب للتوسع ولبسط نفوذهم على الأقاليم والمقاطعات الأخرى بمختلف مناطق وادى النيل، إلى أن حققوا فى النهاية وحدة سياسية تمثلت فى دولة ملكية واحدة، تحكمها حكومة مركزية واحدة. وانتهى بذلك عهد الأقاليم والمقاطعات المصرية المستقلة المتنافسة.

وهذه الظاهرة السياسية التى تكررت بعد ذلك فى مختلف عصور التاريخ المصرى القديم، تفسر لنا كيفية حدوث هذه الوحدة لأول مرة فى بداية عصر الأسرات [الصورتان ٣٠، ٣١ والتعليق عليهما]

الصورة (٣١)

جزء من لوحة من الإردواز عثر عليها فى هيراكونبوليس، يظهر فيها الملك على شكل ثور ينطح عدواً أغلب الظن أنه ليبى. ومن الألقاب التمجيدية التى كانت تطلق على الملك لقب «الثور القوى». أما الرايات والرموز فتبدو معلقة على صوارى على شكل أياد قوية تمسك بحبل متين. ومن المحتمل أنها رايات تخص الأعداء، مثل منظر الرايات المنقوشة على رأس الصولجان الموجود ضمن مجموعة بترى.

• الصورة من أرشيف متحف اللوفر.

(٣١)

الصورة (٣٠)

الوجه الآخر من اللوحة المعروفة باسم «لوحة الغزالين». ونرى على هذه الوجه منظراً لمعركة يقوم فيها أسد بالتهام الاعداء المهزومين، كما تقوم بعض الطيور بالتهام الصرعى من هؤلاء الأعداء الذين يظهر بعضهم مكتوفى الأذرع. ويبدو من ملامح هؤلاء الأعداء أنهم أجانب غير مصريين. كما يظهر الأسد أكبر نسبياً من الحجم الطبيعى. ولهذا فمن المحتمل أنه يدل على «الملك المنتصر». ويعتبر المنظر المنقوش على هذه اللوحة من أقدم النماذج التى رسمت فيها عيون الإنسان والحيوانات والطيور محددة بخطوط تبين المنظر الطبيعى للعين، بدلاً من الطريقة التى كانت متبعة من قبل، حيث كانت العيون ترسم فى شكل فجوات أو ثقوب فى الوجه. ونلاحظ فى هذا المنظر أيضاً أن السيقان والأفخاذ قد رسمت بزواية جانبية، كما أن العيون قد رسمت بمنظرها الأمامى وأن الرؤوس قد رسمت من زواية البروفيل. وهذه هى نفس القواعد التى اتبعت فى الفن المصرى القديم لعدة قرون تالية على عصر هذه اللوحة.

• محفوظة بالمتحف البريطانى. ونقلت الصورة بإذن خاص من أمناء المتحف.

(٣٠)